

جو جول و فونکو

د. إلهام غالى

۲۰۱۳

حاول الكثير من الكتاب ممارسة الكتابة النثرية في العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي^(١). وكانت القصة العاطفية التي بدأها "كارامازين" مازالت رائجة وسكب آلاف القراء، وخاصة النساء، الدموع على القلوب الكسيرة، أو هللوا "لبطل كئيب" جديد. ونالت القصص التاريخية شعبية كبيرة، وقدم "ميكل زاجوسكين" (١٧٨٩ - ١٨٥٢) مؤلف "يورى ميلوسلافسكى" الشديدة الرواج، و"إيفان لازتسينكوف" (١٧٩٢ - ١٨٦٩) مؤلف "منزل الثلج"، عرضاً مهيباً لتاريخ روسيا على طريقة "والترسكوت".

ووجدت مغامرات الأبطال الإنفعااليين المسهبة التي تدور حوادثها في أجواء غريبة وذلك في قصص الديسمبرى "السكندر بسيتوفزيف - مارلنسكى" (١٧٩٧ - ١٨٣٧)، إذ تبدو بروح واضحة وأكثر واقعية، مخلوطة بالهجاء في روايات المغامرات التي كتبها أ. ولتمان (١٨٠٠ - ١٨٧٠) وفاسيلى نارزهنى (١٧٨٠ - ١٨٣٥) مؤلف "جيل بلاس" الروسية أو (مغامرات الأمير كريستيا كوف)، وغيرها من الصور التي تعرض لحياة الأرياف. وقد مهّد كل هؤلاء الكتاب ومعهم كسفتكا أو سنوفياننكو (١٧٩٩ - ١٨٤٣) الطريق لجوجل. فإنّ النثر الروسى لم يؤكد أصالته الفنية إلا في مؤلفات جوجل.

وُلد نيقولاى جوجل، ابن أحد صغار الملاك، عام ١٨٠٩، وقضى طفولته في مزرعة العائلة الصغيرة بالقرب من بولتافا، وفترة من شبابه المبكر في معهد نزهن للنبلاء. وكوّن جو جنوب أوكرانيا الهاديء بتقاليد أدبه الشعبى، وحركة المدينة الريفية الناعمة البطيئة، الشطر الأعظم من حصيلة الذكريات التي كان جوجل يستلهمها في كتابته.

ولمّا كان جوجل شاباً خيالياً حالماً يزخر ذهنه بالأفكار الغربية، فقد اعتقد أنه مكلف بأن يكون ممثلاً. وفي العام ١٧٢٨، انتقل إلى "سانت بطرسبورج" حيث فشل في اعتلاء خشبة المسرح، واضطر إلى أن يكسب عيشه بالعمل كاتباً حكومياً صغيراً، وخصص وقته كله للكتابة. وباءت قصائده الرومانسية بالفشل، فاتّجه إلى النثر. وفي عامي ١٨٣١ - ١٨٣٢ نشر "أمسيات في مزرعة بالقرب من ديكانكا"، وهي مجموعة من القصص تعتمد على الأدب الشعبى الأوكرانى، نصفها قصص عن الجنيات، ونصفها أساطير متأثرة بالرومانسيين الألمان ل. تيببىك و.ا. ت. هوفمان. وفي معظم

^١ مارك سلونيم، "مجمّل تاريخ الأدب الروسى"، ترجمة صفوت عزيز جرجس وراجعه علي أدهم، القاهرة، دار التضامن، ١٩٦٧، ص

هذه القصص يحاول الشياطين التلاعب بفلاحي القوقاز الأشداء الخالين من الهموم، وربما نجحوا في إفساد علاقة غرامية، ولكنهم ينهزمون في النهاية على يد حداد أريب أو فتاة مأكرة. وبينما تفيض "ليلة من مايو"، و"ليلة القديس جون" و"سوق سوروشنتس"، و"البقعة المسحورة" بالمرح الحقيقي والإحساس الشعري، فإن بعضاً آخر مثل "الانتقام الرهيب" - وهي قصة زنا - بمحرم وقتل، وتعد في الواقع قصص رعب رومانسية. ويشمل "ميرجورود" وهي تنتمي للمجموعة الأولى خليطاً غريباً من الميثافيزيقا والفكاهة. ومن بينها "فاي" وهي أسطورة ساحرة جميلة تغوي توما، وهو قس كاثوليكي. وفي كنيسة انتهكت حرمتها، يحضر توما صلاة مجونية للشياطين والأشباح حيث يرى "فاي"، ملك العفاريت الأقزام التي تسكن باطن الأرض، ذا النظرة القاتلة، والذي تصل أجنانه الحديدية إلى الأرض.

وفي كل هذه المجموعات، ظهرت الأفانين الرومانسية كمقابلة المرح بالرعب، وتبادل الفعل وتفاعل الأضداد وفنون الأدب الشعبي المتعدد الألوان. ومع ذلك، فإن بعض قصصه انحرفت بطريقة جديدة عن النماذج الرومانسية وتناولت "التوافه الحقيرة" في الحياة الريفية، وصورت الناس العاديين بثروة من التفاصيل الدقيقة. وقدم جوجول لقرائه المتحيرين المسرورين شخصيات مضحكة وموسية معاً كالشباب الخجول الذي يلغى ذاته وتسيطر عليه قريبة نشيطة مسنة هي "شبونكا وعمته"، وكاتنين من الجيران السطحيين من صغار الملاك، يفقدان صداقتهما لسبب تافه ويصبحان خصمين لدودين، ويقضيان بقية حياتهما في المحاكم والنقاضي، وشجار إيفان إيفانوفتش مع إيفان نيكيفروفتش وهما زوجان لاهبان مسالمان قضيا حياتهما الهادئة في الزراعة كملاك الأراضي القدماء. وفي كل هذه القصص رصد جوجول وحاكي الأصوات والروائح والأشكال بالمعنية لفظية وصوتية غير عادية. وكما يتلألأ التيار الجارف تحت أشعة الشمس اللامعة، كان نثره يتلألأ في تدفقه السريع، متألقاً، يفيض بالحياة. ولكن هذا الأستاذ الذي بدا منتشياً بتأثير كلماته، وكان يعثب بها كالمشعوذ أو الحاوي بدا وقد روعه الملل والحطة. وبدأ يستشعر رعباً داخلياً من تفاهة حياة معظم البشر وجفافها.

وحاول أن يجد لنفسه مهرباً في أعمال الماضي البطولية وفي توهم المثاليات عن الرجال الأقوياء. وتذكرنا "تاراس بولبسا" وهي رواية تاريخية قصيرة بقوزاق أوكرانيا في القرن السابع عشر، وبمجتمعهم العسكري ذي الرجال الأحرار في جزيرة من جزر الدنبيير، وحروبهم ضد البولنديين

والأتراك. ويقتل تاراس القائد العجوز، ابنه الصغير الذي خان القوزاق بوقوعه في حب فتاة بولندية جميلة وانضمامه إلي الأعداء. وعندما يأسر البولنديون تاراس ويعدمونه، يراقب ابنه الأكبر المهندس في الزحام تنفيذ الحكم، ويتعهد بالانتقام الأبدى. ويسير كل عرض الفروسية القوزاقية على غرار تقليد سير والترسكوت. وعلى أية حال، فإن الفقرات الفكاهية الممتعة، والرسم الحاذق للشخصيات الثانوية والوصف الجميل للطبيعة، وخاصة السهل الجنوبي الفسيح، يخفف من الرومانسية المغرقة للكتاب بأكمله.

عاد جوجول إلى كتابة الرويات القصيرة. وعندما حل العام ١٨٣٨ كان قد نشر قصصاً عن الحياة في "سانت بطرسبرج". وفي كافة هذه القصص امتزجت الحياة اليومية العادية بالغموض أو باللاطبيعي، بالكثرة نفسها الواردة من قبله في أعمال أ. ت. هوفمان. يعتقد الرسام بسكاريف بطل "أمل نفسكي" أن فتاة صادفها في الطريق هي تجسيد للنقاء والجمال، تأخذ مباشرة إلى بيت للدعارة، بينما ينشد صديقه بيروجوف المحصن ضد الأحلام يكتشف ماجور كوفاليف المتأنق، ذات صباح، أن أنفه قد اختفى فجأة ويهرع إلى البوليس لاستعادته بالوسائل القانونية. وفي قصة "الصورة" (أول مسودة) يتسبب المال والنجاح اللذان قدمهما الشيطان إلى الرسام الشاب تشرتكوف في إفساده. وفي "مذكرات رجل مجنون"، يتخيل كاتب حقير دليل أنه ملك أسبانيا.

توسل جوجول بفكاهته سلاحاً للهجاء، كاشفاً الواقع بوساطة الغريب المضحك، ومستخرجاً الأحلام والرؤى الوهمية من المواقف الفكاهية. وكانت قصصه في تلك الفترة تعبر عن قلق عقلي غامض متحير، وبدت له التفاهة على أنها عين التعبير عن الشر، ففيها تعمر الشياطين القميئون القباح، عالم الفوضى والضعف المرسوم.

وفي قصة "المعطف" الصادرة في العام ١٨٤٢ وإن كانت تنتمي إلى مجموعة قصص بطرسبورج، تخفف الشفقة من إحساسه بالخواء. ويحلم بطلها أكامي أكافيقتش، وهو موظف بسيط يقوم بأعمال النسخ - يحلم بشيء واحد: هو معطف جديد، وعنده أنه دليل محسوس على الكرامة البشرية، ويحصل عليه بالتضحية والحرمان، ولكنه في نفس الليلة التي يرتدى فيها المعطف لأول مرة يتعرض للهجوم على قارعة الطريق، ويجرد من أعلى ما يملك. ويلج دون جدوى في طلب مساعدة البوليس، ويتدخل شخص مهم - ويقوم الأخير ببساطة بإلقائه خارجاً، ويلقى أكافيقتش التعس منيته بتأثير الحزن، ويسكن شبحه شوارع العاصمة التي يغطيها الجليد، وذات

مساء ينزع المعطف من فوق كتفى ذلك الشخص الكبير الأهمية الذي أساء معاملته. وهكذا تتحقق العدالة الشعرية، ويختفى الشبح إلي الأبد. كانت كل موضوعات الأدب الروسى الأساسية الواردة في هذه القصة العاطفية الغريبة: شفقة جوجول على فريسة الظلم الاجتماعى وتصويره "للرجل الصغير" التافه، وإحساسه بالظلم الاجتماعى، وربما الظلم الكونى، الكامن في مصير الأذلاء والمظلومين، وحنانه المسيحى على الضعفاء والودعاء. وقد ذهب دستوفسكى إلى أنه يمكن إرجاع كل تقليد النثر الروسى إلى "المعطف".

عادة ما كان جوجول يكتب وهو في غيبوبة، في نوبة إلهام، يطبع دافعا لاواعيا، كمن يسير في أثناء نومه، ويبدو كثير من صفحاته كما لو كانت حُلماً. واقترن ذلك باستسلام جوجول لمتناقضاته. وعلى سبيل المثال، فقد كان ذلك هو الحال مع ملهاته "المفتش العام". وقد أوحى له بوشكين بفكرة هذه المسرحية (وبفكرة "الأرواح الميتة")، وشرع جوجول الذي كان شديد الولع بالمسرح (فقد ترك مسرحيات عدّة من بينها مسرحية "الزواج" الممتعة والتي تجنح إلى السيرة الذاتية) في العمل بحماسة. وفي العام ١٨٣٦، قدّمت "المفتش العام" في سانت بطرسبورج أمام جمهور مذهول. وقد أثارت عاصفة من الجدل، حتى إن المجتمع المتعلم بأكمله قد انقسم إلي مهاجم ومدافع عن الملهاة الجديدة. وكان هذا مفاجأة تامة للمؤلف التعس، الذي قام بعدة محاولات غير موفقة للدفاع عن نفسه. ثم مالبت أن تملكه الغم فسقط فريسة للمرض، وهرب إلي الخارج.

وتدور أحداث الملهاة في مدينة صغيرة من مدن الريف، يحكمها محافظ فظ مولع بالاستيلاء على الأموال، وزمرة من الموظفين الجهلة غير الأمناء. ويعتقد الجميع خطأ أن خلستاكوف، وهو شاب أفاق مفلس، هو المفتش العام المنتظر قدومه من سانت بطرسبورج. ويستغل خلستاكوف الفوضى، ويتقاضى الرشى، ويذكر الموظفين المرتاعين بخشية الله، ويخطب ابنة المحافظ، ثم يرحل دون أن يغفل إرسال خطاب إلي صديقه، يسخر فيه من هؤلاء الذين وقعوا فريسة لخداعه. ويصادر الخطاب في مكتب البريد، ويقرأ علنا فيما بعد في منزل المحافظ، على مسمع من الضحايا المذهولين الذين يسمعون في النهاية بأن المفتش العام الحقيقى قد وصل لتوه.

واستخدم جوجول قصة أخطاء الشخصية البسيطة هذه كوسيلة لتصوير الشخصيات كالمحافظ الفظ الجافى وزوجته العابثة، وابنته الفارغة العقل، واثنين من ملاك الأرض الحمقى، والروس القصار المكتئبين، وناظر البريد

المتجسس، ومدير المستشفى سوداوى المزاج، حيث يعالج المرضى كالذباب، كما صرح في زلة لسان، وأخيرا خلستاكوف، الكاذب والدعى الضحل، والرمز الدنىء للتبلىد الإنسانى. وعلى الرغم من حب جوجول للتصوير الهزلى، فقد وجد قراؤه أن شخصياته هي شخصيات مألوفة، كجزء من الواقع الروسى. وبلغ من صدق هذه الشخصيات ورقة تصويرها أن "المفتش العام" قوبلت بالمديح كمؤلف هجائى اجتماعى، وملهاة قومية. وبدأ أن أهميتها السياسية كهجوم على الحكم الراهن يرجح كافة مزاياها الأخرى. ولما كانت فكرة هذه المسرحية وشخصياتها مستوحاة من الحياة اليومية، كما أن لغتها هي اللغة الدارجة التي تخالطها أحيانا التعبيرات الخشنة التي يستعملها نصف المتعلمين، فقد سمي جوجول باسم "رأس المدرسة الطبيعية". وظل هذا الوصف عالقا به قرابة قرن من الزمان، من دون ملاحظة أن واقعية جوجول بالغة الخصوصية - فقد كانت واقعية غريبة وذاتية.

وبينما كان الجدل حول "المفتش العام" على أشده في روسيا، كان جوجول يجوب أوروبا ليستقر في النهاية في روما. الضحك هو بطله الحقيقى. المفتش العام رمز للحساب الأخير. مسرحيته القائمة على الهجاء لا تحتوى على أى شىء عذى طابع هدام. والواقع أن جوجول كان من رعايا الإمبراطور المخلصين، وابنا باراً للكنيسة، ولم يكن له أدنى علاقة بالمبول الثورية، ولكن المحنة الداخلية التي قاسى منها، كانت أعمق من القلق البسيط الذي يتعرض له إنسان محافظ، عندما يكتشف أن كلماته تساعد التقدميين المتطرفين. وكان جوجول يبغى رفع شأن التقاليد التنقيفية في الأدب الروسى. وكان يحلم بالتعليم، وبأن يكون ذا فائدة لمعاصريه، وبأن يؤدى خدمة اجتماعية. ولكن الشكوك القوية كانت تساوره فيما إذا كان ذلك النوع من الكتابة الذي يستطيع إنتاجه، قادرا على خدمة أغراضه على النحو المرضى.

وفي عزله في روما، استأنف كتابة "الأرواح الميتة". وكان يريد أن تكون رواية مغامرات مرحة، ولكنه عندما قرأ الفصل الأول لبوشكين، قبل مبارحته لروسيا، ضحك الشاعر أولاً، ثم علّق قائلاً: "يا إلهى، ما أشد حزن بلدنا روسيا". والآن، ومن بعد وفاة بوشكين، تطور إدراك جوجول إلى أن ضحكه كان "ضحكاً دامعاً"، وتنازعت كافة أنواع الجزع الأخلاقى والدينى. وكان جسم جوجول واهناً، ولم يكن قد مارس أية علاقات جنسية مع النساء، وكانت عقد الأمراض الحقيقية، والأمراض الأخرى الوهمية والألام

الباطنية، تعذبه وكان في الوقت نفسه مرحاً، حاضر البديهة، قادراً على سرد أكثر الهراء إضحاكاً أو كتابةً، والذي كان يبين في النهاية أنّ له مغزىً كبيراً. وكتب "الأرواح الميتة" بالنوبات والوثبات بين عامي ١٨٣٦ و١٨٤١، وكان يشك دائماً.

لم يعد إلى موسكو إلا ليشرف على نشر كتابه الجديد وليزود عنه الرقبا الذين هددوا بنشويه الكتاب، واستطاعوا حذف أجزاء عدّة. وعندما صدرت "الأرواح الميتة" في العام ١٨٤٢، ثارت ضجة كبيرة. وكتب بلينسكى "هذا عمل قومي محض. فهو مستمد من أعماق الحياة الشعبية، وصادق بقدر ما هو قاس ووطني، ويميط اللثام عن الواقع، كما أنه مستلهم من حب عنيف للجوهر الحقيقي للعالم الروسي."

وكان جوجول قد شيّد بنية "الأرواح الميتة" التي أسماها باسم "قصيدة" على أنّها رواية من روايات الرحلات، وهو قالب شائع في الأدب الأوروبي في ذلك العصر. يقطع بطلها تشيتشيكوف، وهو محتال مكنتز محترم، مسافات طويلة لكي يشتري "أرواحاً ميتة" لأرقاء ميتين يتحتم على سادتهم النبلاء أن يدفعوا عنهم ضريبة حتى يتأكد موتهم رسمياً في إحصاء جديد. وبما أن تشيتشيكوف يعرض أن يأخذ على نفسه دفع الضرائب، بل إنه يبدي استعداداً لتقديم القليل من المال في مقابل شهادة البيع، فإن ملاك الأرض المتحيرين يسارعون بالموافقة. وكنتيجة لهذه المعاملات غير العادية، يستطيع تشيتشيكوف أن يبين كتابة أنه يمتلك آلاف من "الأرواح" أو الرقيق دون أن يبين أن هؤلاء جميعاً قد ماتوا ووروا الثرى - ويضفي عليه هذا مركزاً اجتماعياً مرموقاً، والقدرة على القيام برهونات كبيرة، والأمل في أن يتزوج من وارثة. وفي محاولته الوصول إلى غرضه، يصادف تشيتشيكوف كافة أنواع الناس - ملاك الأراضي الراسخ القدم، والذين يشبهون الكلاب، والنبلاء الحمقى ذوى العاطفة السطحية الذين تعوزهم الصلابة ويسمون أطفالهم "ينموستوكليز وألسيديز". والنساء الثرارات اللاتي يفضن بالبهجة من كل النواحي، والمقامرين المتباهين الذين يحاولون مساعدة حظهم عن طريق الغش، والبخلاء الجشعين الذين يرتعدون فرقا خوفاً على بنس، والموظفين الحاذقين الذين ينظرون إلي القانون على أنه عقبة، والثرارين العاطفيين الذين تزيد خطورتهم على خطورة قطاع الطريق. ويقوم تشيتشيكوف بزيارة القصور المترفة والحدائق المتواضعة، والرقص في حفلة يقيمها أحد الحكام، وتوزيع الرشى على الكتبة في المكاتب القذرة، وتدبير الخطط في غرف الفندق. وهو لطيف، حسن الزى، جيد التغذية.

محبوب، على الرغم من أن أحداً لا يستطيع أن يحدد ما الذي يحبه فيه. وهو أنه يفقد ذاتيته، وهو إنسان عادي، واحد من أولئك الشياطين التملقن التافهين الذين يفدون من العدم حاملين معهم عبير اللاوجود وهاوية بغير قرار.

و"الأرواح الميتة" صورة كاملة للحياة الروسية، أو بتعبير أدق تصوير كاشف لحماقة وغباء وكسل الريفيين. وقد رسم جوجول مجموعة من اللوحات تكون صالة عرض كاملة وتتسم كافة شخصياتها، وأحاديثها، وسماتها المميزة، وتقلصاتها، ووجوهها العابسة بصفتين: هما الهجاء الكاشف والواقع المزعج. وتنتمي الشخصيات إلى كافة الطبقات - من حوذي وخدام تشيتشيكوف إلي أثرياء الريف ووكلاء النيابة. ولم تكن روسيا قد شهدت من قبل ظهور كتاب له مثل هذا المدى والروعة الفنية. وكان التأثير المتجمع لكل المناظر والشخصيات والحوادث ساحقاً - هل هذه روسيا؟ هل من الممكن أن يمثل هذا الموكب من الأهواء والأوغاد الواقع؟ إنّ التصوير الواقعي للشخصيات لم يكن إلا جزءاً من هذا المؤلف "المتعدد التخطيط". وكان من الممكن استجلاء كل رسم هزلى إلى أعماقه، إذا يكشف بسهولة عن معناه الرمزي. وكانوا جميعاً، بما في ذلك تشيتشيكوف، أرواحاً ميتة، أو أنهم كانت تعوزهم الروح، وكانوا جميعاً يتنسمون رائحة الشر الدنسة. وقد توازنت الفقرات الغنائية ذات التأثير اللغوي المكتسح، التي عبر فيها جوجول عن أمله في مستقبل روسيا، مع فضح خواء روسيا ذى التأثير الهجوى الحاد المثبط. وفي الفصل الأخير من المجلد الأول، قارن وطنه الأم بالتريوكة (عربة روسية يجرها ثلاثة جياد) المحلقة. وعلى الرغم من أنه لم يستطع تحديد الجهة التي تجذب الجياد العربة إليها، فقد كان يعرف أن الطريق عريض مضىء، وأن السرعة بلغت حد الإعجاز. وبينما هلل دعاة التغريب المتحررون "للأرواح الميتة" لإدانتها لتخلف روسيا الاجتماعي والثقافي، رأى فيها دعاة السلافية عملاً مؤمناً بمصير روسيا العظيم. وتوقعوا أن جوجول سيوضح عقيدته القومية في المجلد الثاني، وتمتاز التخطيطات الشعرية والرمزية الأخيرة في هذا المؤلف المعقد المحكم المتجاوب الأقسام. ويبدو أن التعبيرات الموسيقية هي خير ما يناسب تحليل "الأرواح الميتة"، وتقوم إذ تقوم وحدتها اللفظية أساساً على لغتها الإيقاعية، والثراء الصوتي للجمل، والتأثيرات السماعية للإشارات والتكرار والتلميحات. وقد أصبحت "الأرواح الميتة" حدثاً أدبياً ذا سحر غريب مريض، بفضل ما اتسم به أسلوبها من حركة وشذوذ، ثم الشعر